

قصيدة "تجليات نبي سقط من الموت سهوا" للشاعر يوسف وغليسي. مقاربة أسلوبية

Youssef Ouaghlissi's, poem

"The manifestations of a prophet fallen inadvertently from death",
a stylistic approach.

تاريخ الاستلام : 2020/05/31 ؛ تاريخ القبول : 2021/01/06

ملخص

ملخص حول التجليات:

في قراءة لقصيدة "تجليات نبي سقط من الموت سهوا" للشاعر يوسف وغليسي، المنشورة في ديوانه "تغريبة جعفر الطيار" حللنا القصيدة وفق المنهج الأسلوبية، الذي يقوم بتشريح النص من أصغر وحدة دلالية إلى أكبرها، متتبعين كل ما من شأنه أن يصنع التميز للتجليات، ويوقع الدهشة في المتلقي، قمنا بالغوص في الدلالات الجمالية المرتبطة بإبداع الشاعر، لمعرفة أسلوبه، واستنتاج فلسفته في الحياة، وقد تناولت هذه القصيدة فترة العشرية السوداء التي تخط فيها الوطن بين الضياع والصمود، فكان الشدو الشعري لدى الشاعر يوسف وغليسي صورة عن الحلم، عن الوطن الذبيح، عن الجراح، حديث عن الغربة وآخر عن الهوية.

الكلمات المفتاحية: أسلوبية؛ بلاغة بنية صوتية؛ بنية تركيبية؛ بنية دلالية.

صافية دراجي

جامعة محمد بوقرة بومرداس،
الجزائر.

Abstract

In analyzing Youssef Ouaghlissi's poem "The manifestations of a prophet fallen inadvertently from death", published in his collection entitled "Jaafar at-Tayar Alienation", we followed a stylistic approach that consist of dissecting the text from the smallest to the largest semantic units, tracking any element that would make the distinction of the manifestations and the surprise of the receiver. We looked at the aesthetic connotations associated with the poet's innovation in view to explain his style and deduce his philosophy of life. This poem deals with the black decade during which the country was scrambling between ruin and resistance.

Youssef Ouaghlissi's poem was an image of a dream, of the slaughtered homeland, of the wounds. It was a speech on alienation and identity alike.

Key words: Style - Stylistics - Rhetoric - phonetic structure - Syntactic structure - Semantic structure

Résumé

Dans une lecture du poème "Les manifestations d'un prophète tombé de la mort par inadvertance" du poète "Youssef Ouaghlissi". Nous avons analysé le poème selon la méthode Stylistique, qui dissèque le texte de la plus petite unité à la plus grande, poursuivant tout ce qui ferait l'excellence des manifestations et signerait l'éblouissement chez le récepteur. Nous nous sommes penchés sur les connotations esthétiques associées à l'innovation du poète, pour expliquer son style et en déduire sa philosophie de la vie. Ce poème traitait de la période de la décennie noire au cours de laquelle la patrie est perdue entre démission et résistance. La poésie était une image du rêve, de la patrie souffrante, des blessures, de l'aliénation et de l'identité.

Mots clés: Stylistique, Rhétorique, structure phonétique, structure Synthétique, structure Sémantique.

* Corresponding author, e-mail: s.derradji@umc.edu.dz

مقدمة

الشعر الجزائري المعاصر يرتبط بحياة الفرد، يتتبع تفاصيله، يكشف خبايا نفسيته التي تندمل من شدة الجراح، إنه صوت وكلمة ورسالة تتغنى بالكرامة، تتهدج بالفرحة المقموعة بين ألف سبب وسبب، بكاء على الأنا المقهورة، على الوطن المشرد، على الرغبة المكبله بجماح الصمت.

والشاعر يوسف وغليسي واحد من هؤلاء الشعراء الجزائريين المعاصرين المميزين، ابن الحاضر، ثائر في هدوء، حالم بهدوء، لغته عميقة قوية، موسيقاه عزف على أوتار الحرية. أما الدلالات فتندثر بغطاء من الرمزية القصوى التي تقوم على المفارقات الممدودة، و الانزياحات اللطيفة.

يقول فيه الناقد "عبد الملك مرتاض" أنه "سيرة فنية تكاد تكون استثنائية في نسج الشعر الجزائري المعاصر الذي يكتبه الشباب"¹.

المقال عبارة عن قراءة لشاعر النقاد وناقد الشعراء "يوسف وغليسي" .. قراءة للشعر والشاعر .. بتتبنا لقصيدته "تجليات نبي سقط من الموت سهوا" اعتمادا على المنهج الأسلوبى الذي يقوم بتشريح النص من أصغر وحدة إلى أكبر وحدة فيتبنى استنتاج البنية الصوتية، والإيقاعية، والبنية التركيبية ليصل إلى تحليل البنية الدلالية تتبعا لانزياحات القصيدة التي توقع الدهشة، فما الشعر إلا انزياح، وما الشعر إلا رمز ومفارقة.

تبحث الأسلوبية كما يقول بذلك "عبد السلام المسدي" فيما يجعل الخطاب الأدبي الفني مزدوج الوظيفة والغاية: يؤدي ما يؤديه الكلام عادة وهو إبلاغ الرسالة الدلالية ويسلط مع ذلك على المستقبل تأثيرا ضاعطا، به ينفعل للرسالة المبلغة انفعالا ما².

فالمنهج الأسلوبى يقوم بتتبع ظواهر النص المميزة ليحبر عن شخصية الكاتب/ المرسل وعقليته وتوجهه الفكرى، وهذا هو المفهوم التعبيري التكويني للأسلوب. وكثيرا ما ربط هذا المفهوم بعبارة "بيفون" المشهورة: "الأسلوب هو الرجل نفسه"³.

تنطلق الأسلوبية إذن من هذا المبدأ، أي الكشف عن خصائص أسلوب هذا الرجل/ الأديب الذي يجعله يتميز عن غيره، ويجعل خطابه يختلف عن خطابات غيره. وهذا ما يجعل كل إنتاج بشري هو إضافة إلى المنتج الموجود وليس إعادة له، رغم ظاهرة التناص التي يمكن أن تعترى الأثر إلا أن حضور بصمة المنتج الجديد تجعل من أسلوبه له خصوصية تميزه. وهذا بالضبط ما تهدف الأسلوبية إلى الوصول إليه..

إن "الأسلوبية تستوعب اجتهادات القدماء والمحدثين في مستويي البنية الداخلية للنص وأبعاده التداولية والدلالية"⁴ فرغم الاتجاهات الكثيرة للأسلوبية، رغم تشعب مناحيها، وتفرع مجالاتها إلا أنها تلتقي في أساس مركزي يقوم على تتبع الظاهرة في النص، وصولا إلى المبنى التحي للدلالة من منطلق أن الخطاب ينبنى على مبدأ الاختيار، اختيار الصوت والتركيب وحتى الانزياحات.

ولا ننسى أنه هناك ارتباط وطيد بين الأسلوبية والبلاغة، بل إنهما يقيمان منذ زمن علاقات وطيدة: تنقلص الأسلوبية أحيانا حتى لا تعدو أن تكون جزءا من نموذج

1 يوسف وغليسي: تغريبة جعفر الطيار، ط1، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص5.

2 عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط2، ليبيا- تونس، ص36.

3 هنريش بليث: البلاغة والأسلوبية – نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترج محمد العمري،

ط2، أفريقيا الشرق، المغرب – لبنان، 1999. ص52

4 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

التواصل البلاغي، وتنفصل أحيانا عن هذا النموذج وتتسع حتى لتكاد تمثل البلاغة كلها باعتبارها "بلاغة مختزلة"¹.

واعتمادا على هذا المدخل يمكننا الغوص في الدلالات الجمالية المرتبطة بالإبداع الشعري عند الشاعر "يوسف وغليسي" من خلال قصيدته "تجليات نبي سقط من الموت سهوا"، فرغم اختلاف بنيات التعبير من قصيدة إلى أخرى إلا أن طول هذه القصيدة يسمح لنا باستنتاج ومعرفة الأسلوب الشعري عند الشاعر "يوسف وغليسي" وفلسفته في الحياة، ومن خلاله نقترّب إلى معرفة خصوصيات الشعر الجزائري المعاصر التي تميزه عن غيره من الشعراء.

تأسست قصيدة "تجليات نبي سقط من الموت سهوا" على وقع شعر التفعيلة، هي من القصائد الطوال مشكلة من أحد عشر مقطعا، وبلغ عدد أسطرها مائتان وأربعة عشر سطرا.

قامت على بحر المتدارك وتفعيلاتها "فاعلن" التي تتكرر على طول القصيدة فاتحة مجال الوهج الشعري يتصاعد في دفقة شعورية تتفجر بالكلمات المتتابعات، والأحلام المتناقلات.

فمن الثابت كما يقول بذلك العروضيون أنه يوجد ارتباط وثيق ما بين الوهج النفسي والنبض الحسي، وبين موسيقى الشعر التي يبني وفقها الشاعر نزله وتغريداته على أهداب قصيدة التفعيلة التي تتحرر من القيد لتقول كلمتها بقوة وعنفوان أقوى.. و"كل شاعر من أصحاب الشعر الحر الذين استطاعوا منهم أن يحفروا عميقا في مجرى التيار الشعري فإن موقف كل منهم من الزمن هو الذي يعطي شعره سمة فارقة ويحدد صلته بالحدائث، ويقرر مدى انتمائه وطبيعة ذلك الانتماء"².

قراءة في العنوان:

إن الأسلوب حسب "عبد السلام المسدي" جسر إلى مقاصد صاحبه من حيث إنه قناة العبور إلى مقومات شخصيته، لا الفنية فحسب بل الوجودية مطلقا³.

ويقوم عنوان القصيدة "تجليات نبي سقط من الموت سهوا" على رمزية تخترق أفق التوقع، كل لفظة تحتاج إلى تشريح، كل لفظة في جملة "التجليات" عبارة عن ظاهرة أسلوبية.. تحتاج إلى فهم، وتدقيق نظر. هل ينظر الشاعر إلى نفسه على أنه نبي زمانه، أم نبي طفولته الحالمة، كان يرى غده غد نبي، لكن تجلت له الحقيقة التي أورتته دهرا من العذاب أنه لن يكون نبيا، وإن الموت الذي طغى وتجبر فجأة ما كان ليخطئه لولا أن أجله لم يحن .. لقد سقط من الموت سهوا.. كان من الذين نسوا إعدامه، ووضع حد لحياته، مادام الكل يموت في وطن صار الموت فيه رداء الكبار والصغار.

العنوان الذي يجمع بين المقدس والكأبة .. نبي ولكنه ليس نبيا، كان ينبغي أن يموت.. أن يقتل.. لكنه نجا من الموت سهوا.. إن الوضع الذي يعيشه الشاعر لا ينبئ بالخير، إن الموت يترصد.. ومن نجا فإنه ينجو بمقدرة إلهية أو بمكيده إنسانية..

اختار الشاعر لقصيدته عنوانا مميزا.. مثقلا بالمفارقات، يتدثر بالرمزية، يغيب المعنى إذ يعتقد أنه يفتح عليه.. انبنى لفظه الأول على صيغة مصدر الجمع، "تجليات" وفي القرآن الكريم "فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا (143)" الأعراف/ الآية 143.

وهنا المصاهرة، وهنا التناص، لكن يتكسر خيط القدسية بأن أضاف "سقط" لأن

1 المرجع نفسه، ص19.

2 إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1990، ص67.

3 عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ط3، الدار العربية للكتاب، ص 68.

الأنبياء لا يسقطون، أم أنه إشارة إلى سقوط حلم النبوة الذي لطالما انتظره الشاعر.
التجليات ومعزوفة الوطن الجريح:

يزخر الشعر الجزائري المعاصر بالتجارب الواقعية التي صهرته وجعلته يكون بما هو عليه، صورة تعبيرية عن واقع مر، فلقد كانت فترة التحولات السياسية في الجزائر نقطة تحول في مسار الأدب الجزائري عموماً والشعر خصوصاً "اكتسى فيها الشعر حالة من الحزن فرضها رهن ممزق، ووضع مأساوي عاشته وعاشته الأمة العربية والإسلامية¹. أدرك الشاعر الجزائري أن للكلمة تأثير، وإنها رسالة ما ينبغي أن لا تقول، إنها إذ تنقل إحساسك فهي تصنع الإنسان، وإن تنقل صوتك فهي تنقل صوت الوطن الذي غدا بانسا حزينا، صارت القصيدة صوت الفرد والجماعة المتمردة على الواقع..

لكن حب الوطن والتغني به، والتهجد على وقع آمال فجرت صرخة العذاب، كان صوت الشاعر في هذه القصيدة، وإذ عبر عن حبه الأزلي فقد عمد بدءاً إلى استخدام اسم الفعل "واقف".

"واقف" التي توحى بالوقفة الطللية لها أبعادها الدلالية، "إنه يستعيد في وقوفه ذلك ذاكرة طويلة من الوقوف على الطلل يلحق الشاعر فيها الجراح والآلام، آلام الفقد والضياح، واليأس من الذهاب دون رجعة.. إن الوقوف هيئة متكررة².

وكثيراً ما نجد الشاعر يبتعد عن الأفعال العادية معوضاً إياها باسم الفاعل في إنشاده لغة الوطن الجريح، في التعبير عن أنه المتأوهة، الممزقة، إنه التأكيد على فعل الوقوف بثبات وفي ثبات، فإذا كان الماضي ليعبر عن اكتمال التعبير وحدوثه في الزمن الماضي، والمضارع يعبر عن الآن والما بعد، فإن صيغة اسم الفاعل تعبر عن الثبات.. الحدوث الدائم.. واقف ليس في الماضي فقط ولا الحاضر فقط لا ولا في المستقبل ساقف، إنما وقوفي كان وسيظل.. وكأني بالشاعر يقول من خلال هذه الصيغة أنا جامد في مكاني، ساكن دون حراك منذ أمد، منذ الأزل.

واقف .. أستعيد بقايا الجراح..

في خريف الهوى.. عند مفترق الذكريات..

كصفصافة صعرت خدها للرياح

واقف.. أتحنس ذاكرة اليأس.. ضمأى

يقف الشاعر ملماً إذن ليستعيد ذكريات وطنه المجروح، بمفارقات دلالية تصنع الخيال الشعري، تصنع مساحات جمالية، يقف بمأساة في خريف يائس بانس، لكنه الصفصافة العالية القوية التي تجابه الرياح العاتية، لاشيء يمكنه أن يهدم طقوس التحدي.. سيظل واقفاً.

ثم إن الجميل أيضاً في هذه الشحنة التعبيرية التي تتفتق بالدلالات الإيحائية ذاك الكسر للعرف التعبيري، حيث يذهب الشاعر إلى اللامألوف عن طريق المألوف، مشوشاً في التركيب، مغيراً في الرتب. وهو ضرب من المقدرة البلاغية، وظاهرة أسلوبية تسترعي الانتباه وتدعو إلى التأمل.. دائماً ما يستهل به له مقام التأكيد، والاهتمام. وتتعالى نبرات الحديث عن الوطن الذي استنزفته رؤى وإيديولوجيات شاهقة في الدناءة، عالية جداً في الضعة لتضيع الأمانة باسم المصحف وباسم الأنبياء والرسول.. سيقولها الشاعر بتصريح ضمني، أو بتضمين تصريح في مقطوعتيه السادسة من تغريدات التجليات:

¹ موسى كراد: تجليات الحس الاغترابي في شعر يوسف وغليسي، مجلة دراسات وأبحاث، عدد 29،

2017، ص350.

² المرجع نفسه، ص356.

أخطب الآن فيكم..

وذا وطني مصحف في يدي..

"مالك ابن دينار" يسكن صوتي

في غمرة اللهف:

وطني امرأة وشحت روحها بالعفاف..

إنه يخطب الآن فيهم.. تتويج جميل باختيار أجمل لتركيب يقع فجأة يحمل صوتا يتقدم إلى الأمام، دون سابق إنذار.. بحذف لضمير المتكلم الذي يوحي بالأنا الذي يخطب، خروج جميل وفعلا ترك الذكر أفضل من الذكر مع هذا المستوى البلاغي الذي يتعالى فيه صوت التعبير على حساب الكلم.. إنني أخطب الآن فيكم أيها البشر..

وذا (هذا) وطني مصحف (أحمله) في يدي..

فياله من انزياح يدفعك إلى استنطاق الجمال الشعري والشدو على بلبل استشفاف المعنى الخفي.. إنها الجزائر التي عاشت سنفونية الدم الأحمر والأسود، باسم الوطنية، باسم الدين، باسم العلمانية، باسم الشيوعية، باسم الإيديولوجيات المقيتة.. تجرع الوطن كأس التشرد مرا، كلهم يحميه وكلهم يخونه، كلهم يبكيه، وكلهم يخذله، كلهم يذبحه، وكلهم يبكي على ذبحه.. إنه الوطن الضائع في غمرة الخيانات..

أه يا أسفي !

ضاع مني الذي كنت أحمله، فجأة...

ويحكم ! كلكم غارقون في الدموع

نستدل أسلوبيا على وشح المعاناة من خلال تكرار لفظة "وطن" وللتكرار دلالة أسلوبية عميقة.. يظهر هذا التكتيف أكثر لهذه الظاهرة الأسلوبية الجميلة في المقطوعة السابعة من سنفونية "التجليات":

كان لي وطن يوم كان "أراغون" يشدو

غناء فتنصب الأغنيات عيوننا لـ"إلزا"..

كان لي وطن يوم كان الحمام يحمل "أسماء"

أشواقي الكامنات، وكنت أنا

"الحارث بن حلزة"...

كان لي وطن يوم كان، وكنت وكنا، وكان

"كثير" يعشق "عزة"..

كان لي وطن ضارب في دمي

راسخ في امتداد الزمان

سامق في السماء

شامخ كالنخيل

كان لي وطن يوم كان

كان لي وطن يوم كانت سراديبه تستضيء

بنوري المقدس

تكررت جملة "كان لي وطن" ووطن نكرة، مع فعل ماض ناقص كان.. ست مرات في هذه المقطوعة، تكرار مكثف، وللماضي دلالاته وللنكرة دلالتها.. إنه الوطن النكرة، لمن هو؟ كيف كان، وكيف صار، أي وطن هذا نتجرع فيه كأس الخوف والهزيمة والتخلف..

"كان لي وطن".. لكن لم يعد هناك الآن وطن..

إن البعد السياسي يستنطق الوهج الشعري، فحب الوطن سر مقدس منذ الأزل، والشعر الوطني ملهمة الشعراء مذ دخلوا مملكة الحروف، تغنوا وتغنى شاعرنا بالوطن الأخضر الذي يصعر خده للرياح، تحدث عن الوطن المتاسمق والمستوي على علو النخل وحلاوة التمر، وطن تشدو فيه البلابل لحن الأمل وتنشر عطر الحب.. لكنه.. لم يعد.. صار غريبا.. أستبيحت عفته، وأهدرت كرامته وصار يتجرع كأس الهوان ملئ

شذقيه..

إن تكرار ظاهرة من الظواهر الأسلوبية - والتكرار يندرج في مستوى البنية الصوتية، يبعث على التأكيد، وعلى تفعيل الخطاب بجملة من المؤثرات، تسلط على القارئ قوة الاستجابة، وتدفعه إلى الاهتمام وتمعين النظر في اللاتحات المكررة.. هكذا كان الأمر مع عبارة "كان لي وطن" فتكرارها على مسافات متقاربة في هذه المقطوعة "يعبر عن تلك الانفعالات الحادة التي تجعل المتلقي يحس بتلك المرارة وهذا لما آل إليه وطنه من تمزق الأوصال، وتشتت وتقاتل أبنائه، فاستدعى الماضي المشرق لوطنه ليكون عزاءه الأوحدهذا الحاضر البائس"¹.

لوعة الحلم:

إن الهروب إلى عالم الأحلام نوع من التعالي على الواقع، واعتراف لاشعوري برفض الواقع، هو سفر في الخيال للبحث عن بديل.. فكان مما قصه الشاعر في تغريداته المهاجرة على أعتاب زمن اليأس أنه كان يحلم، كان يعود إلى زمن الصبا بذاكرة طفولية بريئة، كان يهاجر مع تباشير الصباح في فضاءات الرموز التي ترسم له عالما جميلا.. إنه عالم الشاعر.. الخيال والحلم.. كان بإمكانه أن يكون مرسلا لو لم تختم رسالة الأنبياء بالمبعوث الأخير "محمد" صلى الله عليه وسلم، آه لو كان بإمكانه أن يحصل على تباشير ومعجزات لغير واقعه المر الذي يندمل جراحا، لأعاد لوطنه روعة المكان كالذي كان.. لكن:

حلمي الأزلي احتراف النبوة
مذ عقروا "ناقة الله".. مذ شردوا "صالحا"
أشهبوا في وجوه اليتامى سيوف البطولة..
أخطأتني النبوة في البدء.. عاودني الحلم..
ورثني والدي خاتم الأنبياء
وأرسلني كالسراب إلى جهة الريح.

ففي هذا المشهد الثالث من "التجليات" يستهل الشاعر مقطوعته بالاسم على حساب الفعل:

حلمي الأزلي احتراف النبوة.. ليؤكد على سطوة الثبات والاستمرار.. إنه الحلم الأزلي.. مذ بدئ الخلق إلى نهاية الخليقة.. سيظل حلما.. إنه في البدء كان ويكون.. فما احتراف النبوة إلا حلم.. فحقه أن يؤكد كي لا يخطئه التعبير أو القراءات الشاذة.. وكما يقول "هنري بليث" فإن أسلوبية الانزياح تقوم بخرق المعيار النحوي من جهة، وتقيد لهذا المعيار بالاستعانة بقواعد إضافية من جهة ثانية². وهكذا ترى أن مجمل تراكيب قصيدة "التجليات" تخضع لمبدأ التشويش في التركيب، فما حقه التأخير قد يتقدم مضيفا قيمة بلاغية وأسلوبية أخرى، محققا مقصدا تعبيريا مضمرا.

كما يستحضر الشاعر في مفارقاته الرمز الديني بكل ما يحمله من طاقة تعبيرية، يتخفى من خلالها صوت الواقع فاسحا المجال لصوت الخيال ليعبر بكل قوة.. وكما نعلم فاللغة الرمزية تسمح للمبدع بأن يقول الكثير بعبارات موجزة، إنه شكل من الإيحاء، وشيء من الومضة من خلال رمز يعمق المعنى، ويدفع إلى التأثير في المتلقي من خلال الإيحاء الذي يستمر وعلى مدى واسع حيث يتم استحضار الذاكرة لتقريب البعيد. إن الرمز يجعلك تغوص في دواليب من العوالم الخيالية لتقرأ ما وراء النص.. فما أقدر الرمز على استحضار لغة الحلم، إنه يجعلك تقول وتتخفى بقولك ومع قولك، لأنك ستضمّر، أكثر مما ستعبر به..

1 موسى كراد: تجليات الحس الاغترابي في شعر يوسف وغليسي، ص354.

2 هنريش بليث: البلاغة والأسلوبية، ص57.

إن الرمز يعين الشاعر في الحلم على الحلم، يصنع الانزياح في لغة الحلم "عيسى بن مريم"، "ناقة الله" "صالح" "يعقوب" و"عقبة"، "بلقيس" و"ابن عبد الملك"، رموز بعضها ضارب في التاريخ الإنساني، والآخر ضارب في عمق التاريخ الإسلامي، تتحت باستحضارها صورا تعبر عن تأوهات الشاعر وأحلامه، تعبر عن انتمائه، والتزامه.. إنها تعبر من خلال ما كان لها من حضور في زمنها..

ليتقدم مرة أخرى الاستئناف على حساب الجملة الابتدائية:

مذ عقروا "ناقة الله" ..مذ شردوا "صالحا

أشهروا في وجوه اليتامى سيوف البطولة !..

والأصل في الكلم دون تصرف:

أشهروا في وجوه اليتامى سيوف البطولة.. مذ عقروا "ناقة الله" .. مذ شردوا "صالحا".

إنه الاتجاه نحو استحضار الديني المقدس، والغوص في عمق تاريخ الإنسانية الماضي.. الذي اغتال هذا المقدس..

أهازيج الغربية والحزن:

بلغة رمزية طافحة، بمفارقات دلالية، بانحرافات تعبيرية تشوش القاعدة اللغوية، وتصنع التميز، وتطبع الدلالة بالإشباع، وتنحرف لتعبر.. بلغة الانزياح -والشعر انزياح- تتكرر نغمة الإحساس بالغربة، ومعه يتكرر لحن الحزن في وطن ذبحت فيه الآمال الطافحات..

إن نظرية تحديد الأسلوب تنتزل منزلة لوحة الإسقاط الكاشفة لمخبات شخصية الإنسان، ما ظهر منها في الخطاب وما بطن، ما صرح به وما ضمن¹. ونحن نرى مما نراه لغة الغربية وإنها لنشيد معظم الشعراء العرب عموما ونغمة الشاعر الجزائري خصوصا في ربيع الأمنيات الذي ارتدى ثوب الحداد..

فتكرر معجم الألفاظ التي تنشد لوعة الحزن وألم الغربية في "التجليات" وخاصة التكرار المعنوي حيث يتكرر المعنى بألفاظ مترادفات، أو قرابية من الترادف. ومن الألفاظ التي يمكننا إدراجها في معجم نشيد الغربية والحزن نذكر: الجراح، اليأس، خريف، ظمأ، وحيدا، شاخت، تهاوت، الدمع، دمعي.

إن الغربية فاجعة المرأ، وحيثما كان الإحساس بالغربة تبعه الإحساس بالحزن العميق:

أطرح بيبي.. أغالب حزني..

فيغلبني الدمع.. يجرفني في خراب المدى...

كنت وحدي طريح النوى، مثل غصن حقير

على الأرض ملقى..

وكانت رياح النبوة تعبرني...

وهكذا .. بهذا النغم الموسيقي العذب، بهذه الجمل المسترسلة التي أوامت بايقاع ترتله تسابيح الوحدة يصرح الشاعر بلغة شعرية تتفقت دلالة وتتفجر بالإشباع الروحي - والأسلوبية تتبع بصمات الشحن في الخطاب عامة² - يعبر الشاعر عن هذا الزخم من الخراب.. إنه وحيد في هذا الخراب، وحيد يغالب مأساته.. وحيد.. وحيد.. ولكن سبيل العودة إلى الأنا القوية هي رياح النبوة.. أو حلم النبوة الذي يخطئه ثم يعاود الحلم به مرة أخرى.. ليوقظه من عتمة تشرده.. ويظل وحيدا :

كنت وحدي أساهم.. وحدي أرد الأعادي..

وحين ترديت، كان لي الحوت منفي ومقبرة..

كنت في بطنه غارقا في التسابيح..

1 عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص67

2 المرجع نفسه، ص41.

سبحت باسم دم الشهداء
 باسم ما في دمي من هوى لتراب بلادي
 للرمل والنخل.. سبحت.. سبحت..
 ثم بردف في المقطوعة الثامنة لينشد دائما على أوتار الغربة المثقلة بالحزن:
 ألجأ الآن وحدي إلى الغار
 لا أهل.. لا صحب.. إلا الحمامة والعنكبوت !
 غربتني الديار التي لا أحب ديارا سواها
 ولكنني متعب.. متعب من هواها..
 في أيها الحب اسحب خلاياك من دمي
 إلتو- إنسحب.. ودعني أموت !
 والفجيرة ذاتها تتكرر في المقطوعة التاسعة من تسابيح الموت. يقول الشاعر:
 هائم في السنين ..
 والدروب ملغمة بالفجائع !
 الموت يزرع كل الدروب..
 وكل الدروب تؤدي إلى الموت..
 تغمرني رجة الموت في كل حين..

كم هو قاس ذلك الإحساس الذي ينتاب الإنسان حين يشعر بنفسه منبوذا مطاردا
 يستطلع وجه الموت في المرايا كل صباح ومساء. يستلطف طيف الشوق والحنين.. كم
 هو قاس ذلك الإحساس الذي يجعل من الإنسان غريبا بين أهله، مشردا وسط أحبائه،
 حزينا يلحق الصبر وينزف أسي.. ولأن الأسلوب اختياري واع يسلطه المؤلف على ما
 توفره اللغة من سعة وطاقت¹ فقد استهل الشاعر معزوفة الحزن هذه باسم الفاعل
 "هائم" .. ورأينا مدى سلطة اسم الفاعل في التجليات، ثم مدى حضوره في مقاطع
 الوقوف، والدلالات الشعرية والإخبارية التي حوآها، لنرى حضوره مع هذا المقطع
 الذي يعبر عن الضياع..

هائم في السنين.. يسترجع زخم الذكريات.. هائم.. مسافر في الزمن ويظل فيه مسافرا
 متأملا.. ودروبه ملغمة بالفجائع.. إنه شبح الموت يخيم، ولفظة الموت كانت من
 المصطلحات التي تتكرر، فإذا كان القول قد مس الحديث عن العشرية السوداء فكيف
 لا يكون حديث عن شبح الموت، وشبح الفجائع، وشبح الخوف والرعب.
 العشرية السوداء.. بصمة للمأساة جعلت الموت حقيقة ترى جهازا نهارا.. الموت طائر
 البومة يطل في الليل لكنه لا يختفي في النهار.. العشرية السوداء طبعت الكون برداء
 الجنائز الممدود بطول لا حد له.. كل ينتظر دوره في طابور الضحايا.. هكذا تكرر
 الموت في القصيد ليبدل عليه صراحة، وهكذا تكرر ليبدل على الحزن والضياع
 والغربة وإنها دلالات الموت أو توائم للموت.. فأى حياة في كنف ألم يستديم..

الشاعر وأنا الهوية:

من بين الموضوعات المهمة والخطيرة التي تناولتها قصيدة "التجليات" حديث الشاعر
 عن الهوية الجزائرية كما يراها هو وكما يأمل أن يجد في المتلقي الجزائري.. إنه إذ
 يقول يرسل رسالة يأمل أن يكتنفها القبول من الأوساط العامة بدءا من طبقة النخبة..
 يقول:

بربري أنا..

بربري، ولكنني كنت دوما أحن إلى زمن
 الفتح.. أهوى سهيل الخيول.. يراودني

1 عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص.ص 74، 75.

طيف عقبة، كان يلوح لي بالمزامير

يغمرنني بالمنى

هكذا كانت التغريية في تغريدتها الخامسة، استهلال مميز.. وتقديم متعمد.. ويا له من فرق حين تقول وعلى عادتك في الكلام أنا بربري، أو أن تسبقها بتشويش لطيف مقدا المسند إليه على المسند وبلغة الجملة الاسمية التي تقر الثبات وتؤكد على تحقيق الاسم .. بربري أنا..

استهل الحديث عن الانتماء بثبات الذي لا يتبدل ولا يتحول.. إشهار الحكم الأزلي أيضا.. فكانت "بربري" الكلمة المفتاح.. اللفظة الأصل، مدرك الاهتمام، فاستهل بها الشاعر مقطوعته وسطره، مكسرا رتابة القاعدة اللغوية، مشوشا في النظام النحوي موقعا الغرابية على الأسلوب الشعري.

ثم تتكرر لفظة "بربري" للمرة الثانية مباشرة في السطر الثاني لتأكد على انتماء الشاعر إلى عرقين تزاوجا فتزوجا وأنجبا ابنا يسمى العربي.. دمه عربي وبربري.. تسكنه روح الأصل، وموكب الفتح.. لذا فهو يهوى سهيل الخيول، وفضاءات الرمل.. أما الخيول فكثيرا ما تكررت في هذه القصيدة، إنها لغة الارتباط بالمشرق العربي، والعودة بذاكرة الحنين إلى أيام "العز بالإبل والشجاعة بالخيول" .. أيام الجواد العربي الأصل الذي رافق مسيرة الشاعر العربي..

كما تكرر للإشارة إلى الارتباط بالهوية الوطنية ألفاظ مترادفات دالة عليها:

الوطن، التراب، بلادي، هويتي، العروق، دمي، الانتماء

إنه لا يتنكر لأصله.. يقولها صراحة:

أم أغير لون دمي، كي يقال:

تنكر للكاهنة

إنني العربي الشهيد الذي لم يم

في ربيع الغضب..

والمقطع حديث عن الربيع الأمازيغي الذي كاد أن يفجر الوطن ويفجرنا ويفجر وحدتنا وأخوتنا.. فلم كل هذا؟؟ لم الخلاف والاختلاف.. فهو لن يغير دمه كي يعجب عدوه.. إن دماء كسيلة والكاهنة تسري في عروقه، ولكن فؤاده معلق بأرض الرمل والنخل.. الأقدار البيضاء التي انتشنته من عالم العبودية البائس إلى مضان الحقيقة والحرية.. فصارت روحه مشبعة بأصلين بربري وعربي.. ولا شيء يمكنه أن يغير حقائق التاريخ والواقع.. بربري.. أحمل على جبهتي كنييتي المقدسة وهويتي الثابتة، في برج عاج لا يتبدل.. لا ولا يتحول..

أنا لست شيئا دون بربريتي .. دون هويتي التي تشرفني، ولست شيئا دون عربيتي أيضا التي صهرتني واحتوتني، وجعلت مني كائنا حيا يطير إلى ملكوت السماوات بتوحيده وإقراره رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين.. عربي.. لا يعلم أي دم أقوى يسري فيه.. لكنه لن يتنكر لانتمائه.

إن أول ما يطالعنا في اعتماد التفكير الأسلوبية عند الدارسين أنه على المخاطب تعريف الأسلوب بأنه قوام الكشف عن نمط التفكير عند صاحبه كما يقول "عبد السلام المسدي"، لذا فنحن ننظر مع الشاعر في واقعا.. كيف نتخلص من انتمائنا الذي نحت وجودنا وسكب في بوتقته ربيع عمر أخضر.. ليؤكد الشاعر وجهة نظره أنه الجزائري البربري العربي الثائر.. البربري الذي احتضن خيول عقبة وأحب الراية الخضراء، وفتح أفقه على تتويج مملكة التوحيد.. هو التاريخ صهر أفئدتنا وأرواحنا فصار "العربي":

إنني العربي الشهيد الذي لم يم..

1 عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص 64.

في ربيع الغضب.. فإذا كان استهلال الجملة بضمير المتكلم ركون إلى العادي من القول فإنه قد قدم العربي على حساب الشهيد.. ومن حقه التقديم ليس للمستنه البلاغية فحسب ولكن تواصل في حديثه عن إحساسه والتعبير عن وجهة نظره تجاه واقع اختلط فيه الحابل بالنابل، واختلف الإخوة وتقاتل الأبناء، وتعالى صوت العدا بين أبناء الرحم الواحد.. رحم الجزائر..

وكعادته فقد عبر الشاعر عن هذا الموضوع الحساس باستحضار الرموز التاريخية التي تستنطق صورة الماضي كما هو دون أن يضيف إلى سلم الحقيقة كلمات أخرى.. اعتمد على الرمز الذي يضيء الوجود المعتم: "عقبة"، "غيلان"، "ابن عبد الملك" والتي تهدف أيضا إلى الإقناع، فالأسلوبية تستوعب مفهوم الإقناع باعتباره شحنة منطقية يحاول بها المخاطب حمل مخاطبه على التسليم الوضعي بمدلول رسالته، ولا يجب أن نغفل عن مفهوم الإمتاع¹.

وهكذا كانت التجليات الوغليسية "حكاية مدارها الإخبار عن المعاناة الواقعة تحت وطأة زمن الموت والفتنة، حشد للعذاب والضياع، وفضاء للتنفس بالأوجاع، تداخلها نبرة نبوية تجعل من لغتها وكأنها لغة قداس"².

يتجلى على القصيدة الانزياح في أبهى حليه، وأقوى قدراته، يتلاعب بالكلمة شأنه شأن الشعر العربي المعاصر، فالجملة لا تعبر دلاليا لذلك نرى الكثير من الغموض.. الجملة الشعرية لا تخضع للعقل ولا تقصد التوصليل المباشر، إنها تتخفى أكثر مما تظهر، يبتعد بالفهم كي يفتح على القراءة المتعددة.. للانفتاح على لامحدودية القراءة ولا نهائية الدليل.. إذ إن انفتاح الشعر للفهم هو العدو الأكبر للكشف.. الكلمة الشعرية تعبر عن "فعالية الروح وحاجتها"³.

1 عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص81.

2 موسى كراد: تجليات الحس الاغترابي في شعر يوسف وغليسي، ص353.

3 إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، ص7.

قائمة المصادر والمراجع:

1 - القرآن الكريم: رواية حفص عن عاصم

المصدر الأساسي:

2 - يوسف وغليسي: تغريبة جعفر الطيار، ط1، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر،

2013

بقية المصادر والمراجع:

3 - إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة، المجلس الوطني

للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1990

4 - هنريش بليث: البلاغة والأسلوبية - نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترج

محمد العمري، ط2، أفريقيا الشرق، المغرب - لبنان، 1999.

5 - عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط2، ليبيا-

تونس.

6 - موسى كراد: تجليات الحس الاغترابي في شعر يوسف وغليسي، مجلة دراسات

وأبحاث، عدد 29، 2017.